



دراسات في الفن

الفن هو الانتاج الروحي

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

—•••—

المنطق . ومع هذه الكثرة فلا يزال الكتاب المبدعون قليلين ، ولا يزال الربون المثقفون نادرين ، ولا يزال المجادلون والمحامون الساطعون يمدون في الجيل على أصابع اليد أو على أصابع اليدين . فلو كان الفن حقاً هو التطبيق العملي للقوانين لكان كل من يعرف الطريق إلى هذا التطبيق فناً كما كان كل من يعرف الطريق إلى تطبيق القوانين الخاصة بالأعداد حاسباً ، وكما كان كل من يعرف الطريق إلى تطبيق القوانين الخاصة بعناصر المادة كيميائياً .

ولكن الأمر ليس كذلك . فبعض ما يدس على الناس في ثوب الفن ليس فناً ، وبعض ما يساق إلى الناس مجرداً من ثوب الفن هو في الحقيقة فن . ولا بد أن يكون القارئ قد سمع لحناً من الألحان قال عنه صاحبه ومن يروجون له ، إنه موسيقى وجعلوا دليلهم على قولهم أن فيه تطبيقاً عملياً لقوانين الأصوات والأنغام في الوقت الذي لم يستشعر فيه حين سَمِعَهُ إلا هذا التطبيق العملي وحده لهذه القوانين دون أن يدفع هذا اللحن إلى نفسه عاطفة ينقلها من نفس صائغه ، أو خيالاً ينبعث من روحه ، ويمبر عن إحساسه وذوقه وذاته . هذا بينما لا بد أن يكون القارئ قد راعه يوماً شراب أو عطر ألفه كيميائياً ممن تنفذ نفوسهم وأذواقهم إلى تطبيقهم العملي لقوانين المادة وعناصرها . وكما أنه لا بد أن يكون قد سمع عن نسبة أينشتاين ، فأحس من كثرة ما قيل عن غموضها وتعقيدها وتساها أنها ليست تطبيقاً مجرداً لقوانين الأعداد وإنما هي حبة فيها شيء من روح أينشتاين نفسه لم يصل إليها إلا لأنه يتجه في تطبيقه لقوانين الأعداد اتجاهها خاصاً به هو ، مرجعه إحساسه الذي قاد تفكيره .

فإذا سلمنا بهذا استدعى الإنصاف أن نحكم على ذلك الموسيقي الذي لا يضع في لحنه إلا التطبيق العملي لقوانين الصوت والأنغام

يقول علماء البلاغة والتربية والمنطق وغيرهم من العلماء الذين يتصدون لدراسة العلوم المتصلة بالفنون أو العلوم التي من فوقها فنون : إن الفن هو التطبيق العملي للقوانين الخاصة بموضوع ما . فإذا كان موضوع البلاغة هو جمال الكلام فإن فن البلاغة هو التطبيق العملي للقوانين التي يحصل الجمال للكلام باتباعها . وإذا كان موضوع التربية هو تنشئة الأحداث على وجه من الصلاح أو على أوجه الصلاح كلها فإن فن التربية هو التطبيق العملي للقوانين التي يتم صلاح الأحداث باتباعها على وجه من الوجوه أو على أوجه الصلاح كلها ؛ وإذا كان موضوع المنطق هو ربط الكلام على الحق الصادق حتى يطابقه فلا يزيد عليه ولا ينقص عنه فن المنطق هو التطبيق العملي للقوانين التي يتحقق باتباعها هذا الربط وهذه المطابقة

وبهذا التفصيل وبهذا التيسير أباح العلماء لأنفسهم ولتلاميذهم أن يستضمفوا الفنون وأن يستسهلوا وأن يمدوها ، ما داموا قد وجدوا هذا التعريف الذي استنبطوه لها شيئاً ، يمكن أن يحققه كل إنسان ، وأن يعنى في تحقيقه ما شاء له تهاون هذا التعريف الذي يمنع عن الفن ما يلزم لحدوثه ، اللهم إلا أن يكون تطبيقاً عملياً للقوانين ... وبهذه الإباحة كثر الكتاب الذين يطبقون في كتاباتهم قوانين البلاغة ، وكثر الربون الذين يطبقون قوانين التربية ، وكثر المجادلون وتفاقم عدد المحامين الذين يطبقون قوانين

غير أن هذا في الواقع نوع من الأرستقراطية القاصرة ،
أو القصور بكرهه الفن الصحيح . والفن لا يكرهه لأنه
ديمقراطي بطبعه أو لأنه بلشفي ، وإنما يكرهه لأنه دون الأرستقراطية
التي يحبها لنفسه . فالفن متمصب كل التنصب لأرستقراطية
الروح ، وهو يفخر بأن ينسب إلى نفسه كل ما انتسب إلى الروح
من أعمال البشر ، حتى ولو كان نجارة أو صيد سمك ، ولكنه
يأبى أن ينسب إلى نفسه كل ما خلا من الروح حتى ولو كان لحناً
أو شمعاً أو رسماً .

والفن في هذا لا يحيد عن الحق . وأشرف للفن أن يحتضن
النجارة وصيد السمك متى جمعا الروح والذوق ، من أن يحنو
على كلام سخيف منظوم ولكنه ميت ، ومن أن يدخل إلى
حظيره ألقاً روعى فيها أن تكون تطبيقاً عملياً لقوانين الصوت
والنغم ، ولكنها ما تزال جامدة كأنها الصوت ضغط وتركز حتى
تجبر

ولا أظن أهل الفنون الجميلة إلا مقتنعين بهذا الرأي ، وما
أظنهم بمد اليوم إلا آخذين به ، فهم مقربون إليهم كل من تنفذ
روحه إلى عمله ، وكل من يسرى من نفسه إلى عمله لونه الخاص
بطبعه ويلونه ، فيكون عمله تعبيراً عنه يعرف به . وهم مبعدون
عنهم كل أجرد النفس ، قاحل الحس ، مجذب الروح والشعور ،
وإن قضى حياته يمزق على الأوتار ، أو يسود الصحائف بالخبر .
وقد يمتننا أن يؤمن الفنانون بهذا الرأي مثلما يمتننا أن يؤمن
به الجمهور ، وأن يأخذ به النقاد أخذاً شديداً ، وأن يعدلوا عن
قياس الفنون إلا بمقياسه ، وأن يشيع قياسهم لبقية الأعمال
البشرية بهذا القياس . فإنهم إذا فعلوا هذا فإنهم سيرثون الفنون
من طفيليات كثيرة تلتصق بها وتدعى النسبة إليها ، كما أنهم
سيمودون بالحق فيعترفون لكثير من الأعمال البشرية الفياضة
بالروح بأنها فنون .

صحيح أنه مقياس قاس ، ولكنه في الوقت نفسه مقياس
عادل ، إذ يرد إلى كثيرين من أصحاب الجهاد الروحي اعتبارهم
الإنساني بعد ما ظلوا الأحقاب الطويلة وهم لا يحصون بين
الناس إلا على أنهم صنّاع أو عمال . زد على ذلك أنه سيكشف

بأنه غير فنان . وعلى هذا القياس كان غير فنان كذلك كل من
يتصدى لأى فن من الفنون وليس معه إلا ما اكتسبه من معرفة
القوانين الخاصة بهذا الفن ، ومعرفة طرق تطبيقها . كما أن الإنصاف
يستدعى إلى جانب هذا أن نصف بالفن كل من ينتج إنتاجاً فيه
من نفسه وذوقه كأيشتين الذي ابتدع النسبية وككل كيميائي
يبتدع شرباً أو عطراً فيه من ذوقه .

والنتيجة اللازمة لهذا هي أن ينهار هذا التعريف الذي وضعه
علماء البلاغة والتربية والمنطق وأمثالهم للفن . فهو تعريف غير
جامع مانع كما يقولون هم ، لأنه يسمح للأدعياء بالدخول في زمرة
الفنانين ، كما أنه يحرم فنانين اثنين من الاستمتاع بحقهم الطبيعي
في الانصاف بالفن بينما هم جديرون بأن يتصفوا به .

ومادام هذا التعريف قد انهار فقد نرم أن نبحت عن تعريف
آخر تقيمه مقامه ويكون فيه الجمع والمنع اللذان تتطلبهما صحة
التعريف

أما أنا فأحب أن يكون تعريف الفن هو هذا العنوان الذي
رصدته على رأس هذا الحديث وهو أن الفن هو الإنتاج الروحي .
ولست أرى من عيب لهذا التعريف إلا أنه يسمح لكثير من الأعمال
البشرية التي اعتاد الناس ألا يحسبوها بين الفنون بأن تكون
فنوناً . فهو يسمح للنجارة إذا كان فيها من روح النجار وذوقه
الخاص أن تكون فناً ، كما يسمح لصيد السمك إذا كان فيه
من وسيلة خاصة ترجع إلى ذوق الصياد وتلهمه إياها روحه
أن يكون فناً . وهكذا فليس من عيب في هذا التعريف إلا إمكان
تعميمه على الأعمال البشرية جميعاً

وقد لا يكره هذا التعميم إلا القلة الخاصة من الفنانين الذين
يبدعون تلك الفنون التي اصطلاح الناس على تسميتها فنوناً جميلة .
فهؤلاء رحدهم أو بعضهم هم الذين يحبون أن يقتصر الانصاف
بالفن عليهم فلا يكون النجار فناناً ، ولا يكون صياد السمك فناناً ،
ولا يكون أحد من الناس فناناً إلا من كان أديماً أو موسيقياً
أو ممثلاً ، أو رسماً ، أو واحداً من هؤلاء الذين يسبحون في
« السموات العلى » لا شئ إلا أنهم اعتادوا التعالى على البشرية
بأديهم وموسيقاهم وتمثيلهم ورسمهم

والآنين بأنغام الطرب، عزيز هذا لدينا سوء الظن به وقادنا هذا إلى الحكم على فنه بأنه مقطوع الصلة بالروح، وإلا كانت روحه مجنونة مختلطة الأحاسيس تضطرب إذ تشمر وإذ تعبر عن شعورها وهو ليس كذلك، وإنما روحه هي المنصرف إلى شيء آخر غير الإبداع الموسيقي لأنها لم تخلق له. فالأستاذ محمد عبد الوهاب فنان متنكر مثل الأستاذ أحمد أمين

والأستاذ محمد ناجي الذي يقنع في فنه بأن يرسم خطوطاً تشبه ما يراه من الخطوط في الخارج، وأن يصبغها بألوان تشبه ما يراه من الألوان في الخارج — لا يمكن أن يزيد في اعتبار الفن « الرسم » على أنه نقاش أمين — إذا كان أميناً — يغني الفنان الذي يحتاج إلى نسخ كثيرة من الصورة الواحدة على آلة من آلات الطباعة، زد على ذلك أنه يحتاج دائماً إلى شرح صوره بكلام وإشارات يتقنها أكثر مما يتقن التصوير، ويوصل بها إلى إقناع جمهوره الذي يدعو إلى مشاهدة صوره أو الذي يبيع له صوره، بجمال هذه الصور وروعها، إذ يقعد هذا الجمهور عن إدراك هذا الجمال إذا اكتفى بالنظر إلى هذه الصور. فالأستاذ ناجي هو أيضاً مثل صاحبيه فنان متنكر: يحترف شيئاً لا يتقنه، ويتقن شيئاً لا يحترفه

أما الأستاذ جورج أبيض الذي لم يتقن إلى اليوم إلا الأدوار الثلاثة أو الأربعة التي تعلمها أيام كان طالباً بمسرح التمثيل المصرية في باريس وهي عطيل ولويس الحادي عشر والملك لير ومضحك الملك فيا أظن، وقد أتقنها جميعاً بالأسلوب الفرنسي التلحيني الذي تعلمه في فرنسا والذي يصرخ في مشاهدته بين كل كلمة وأخرى، وبين كل حرف وآخر بأنه تمثيل ليس فيه من الطليعة ولا حتى من التطبع شيء... الأستاذ جورج أبيض الذي انحصر فنه في هذا وحده يخرجنا كثيراً إذا طالبنا بأن نعرف له بأنه فنان فيه روح نافذة معبرة... تظهر في تمثيله...

وقد يسألنا سائل كيف نجح هؤلاء الأساتذة في حياتهم على الرغم مما تنكره عليهم جميعاً من صلة فنونهم بأرواحهم. ونحن نجيب عن هذا بأن ثلاثتهم: أحمد أمين ومحمد عبد الوهاب ومحمد ناجي قد نجحوا لأن لهم أرواحاً تسرى في أعمالهم ولكن من طريق

لنا الألقمة عن وجوه كثيرة متنكرة: لها أرواح ولها فنون ولكنها تتكلف في الحياة فنوناً غير فنونها فتعيش فيها ميتة بدون أرواح لأن أرواحها منصرفة إلى ما تصبو إليه

وكي يتصور القارئ قسوة هذا القياس فليطبقه على بعض الأعلام من الذين يقال عنهم في مصر إنهم فنانون

فلنأخذ في الأدب مثلاً الأستاذ أحمد أمين، ولنأخذ في الموسيقى مثلاً الأستاذ محمد عبد الوهاب، ولنأخذ في التمثيل مثلاً الأستاذ جورج أبيض، ولنأخذ في الرسم مثلاً الأستاذ محمد ناجي الذي كان ناظراً لمدرسة الفنون الجميلة العليا إلى عهد قريب

أما الأستاذ أحمد أمين فقد أثبت عليه الدكتور زكي مبارك في مقالته الأخيرة بالرسالة أنه أستاذ يكتب ولكنه لا يسرى من روحه شيء في كتابته، فانت لا تعرفه حين تقرأه إذا كان راضياً أو كان غاضباً، وأنت لا تشمر به إلا هادئاً دائماً وفاتراً. وحسبه هدوءاً وفنوراً ما سجل عليه الدكتور زكي مبارك مظهره وهو أنه عاش وقتاً طويلاً في الواحات فلم يعرف الناس أنه عاش في الواحات إلا يوم أعلنت هذه الحقيقة الغربية على صفحات الرسالة في الجدل الأخير. بل حسبه هدوءاً وفنوراً وبمبدأ يفنه عن الروح أنه كان قاضياً ومع هذا فإنه لم يكتب قصة واحدة من نصوص الحياة التي عمرت له وهو في القضاء. وهذا دليل على أنه يعيش في دنيا، ويكتب في دنيا أخرى. وهذا يستدعي واحدة من اثنتين: فإما أن يكون الأستاذ أحمد أمين بروحين يعيش واحدة ويكتب بالأخرى ولا صلة مطلقاً بين الواحدة والأخرى، وإما أن يكون كما هو الآن متنكراً يعيش ويكتب فلا تعرفه على حقيقته ما عاش أو كتب

والأستاذ محمد عبد الوهاب لا يخلو له لحن من نص موسيقى يستحسنه في موسيقى سيد درويش أو في الموسيقى الغربية؛ ولا معنى لهذا إلا أن يكون الأستاذ عبد الوهاب عاجزاً من إطلاق روحه بالتعبير الموسيقي في العاطفة أو الخيال على وجه من الحسن يرضيه، أو أنه عاجز عن التعبير الموسيقي أصلاً. فإذا أضفنا إلى اضطرابنا هذا في أمره أنه كثيراً ما يخطئ في التصوير الموسيقي فيصور الفرح بأنغام الحزن، والحسنة بأنغام الخلاعة،